مذكرة بحثية

"بالقمح يحيا الإنسان"
القمح المسلوق(السليقة) كرمز لهوية المسيحيين العرب في إسرائيل

أكيكو سوغاسيه (Akiko SUGASE)

المقدمة

يشكل المسيحيون العرب في إقليم شرق البحر الأبيض المتوسط ما يقل عن 10% من سائر السكان العرب، حتى عند الأخذ بالاعتبار المسيحيين من اليونانيين الأرثوذكس (الروم الأرثوذكس) والكاثوليك والبروتستانت مجتمعين. ونظراً لأنهم يشكلون أقلية فهم أكثر إدراكاً لهويتهم كمسيحيين وأكثر رغبة لجعل "موقعهم كمسيحيين" بادياً في جوانب متعددة من الحياة اليومية. في حين يشكل المسلمون أغلبية في إقليم شرق البحر الأبيض المتوسط باستثناء اليونان، فإن للمسيحيين العرب في إسرائيل هوية مختلفة عن نظرائهم من المسيحيين العرب في بلدان أخرى في المنطقة نظراً لأن اليهود في إسرائيل هم وحدهم الذين يتمتعون بموقع يجعلهم يلعبون دوراً رئيساً في المجتمع، على خلاف البلدان الإسلامية حيث يعتبر كون المرء عربياً أمراً مسلّماً به ففي إسرائيل نجد قبل كل شيء مجموعتين مختلفتين من السكان– اليهود والعرب، وهكذا فإن الإعلان في هذا البلد عن أنك مسيحي مساوٍ لتعريف نفسك بأنك عربي، وهذا يعني أن هويتك كمسيحي وهويتك كعربي، اللتين تعتبران جوهرياً شيئين مختلفين، مترابطتان ترابطاً حميماً، وقد تكاملتا في مآل الأمر لتكونا هوية واحدة بسبب وجود العرب من غير المسلمين، أي اليهود.

هذا لا يعني بأن اليهود هم الوحيدون الذين يطلق عليهم اسم (الآخرون) بالنسبة للمسيحيين العرب في إسرائيل، ويشترك المسيحيون العرب مع المسلمين الذين هم عرب أيضاً، في نواح ثقافية تتضمن الملبس والمأكل والمسكن ولذا فإن لديهم عدداً أكبر من المناسبات التي يتفاعلون فيها يومياً مع المسلمين أكثر من تفاعلهم مع اليهود، فهم يعتبرون المسلمين كـــ (آخرين) مرتبطين بهم ارتباطاً أكثر حميمية، إلا أن المسيحيين العرب، ونظراً لهذه الحميمية أكثر رغبة في تفريق أنفسهم عن المسلمين مما هم عليه بالنسبة لليهود، ورغبة منهم في التدليل على التمييز الحاد بينهم وبين المسلمين فقد أعطوا لثقافتهما المشتركة صبغة ومغزى مسيحيين.

سوف يناقش هذا البحث ثقافة النظام الغذائي عند المسيحيين الكاثوليك الملكيين وعند المسيحيين الكاثوليك الموارنة في إسرائيل، ويعمد إلى التركيز تركيزاً خاصاً على المعاني المتضمنة في

عصيدة القمح (القمح المسلوق) بالنسبة لهم، وكيف تمثل بذلك هويتهم، ومن أجل أغراض هذا البحث فإن كلمة "مسيحيون" سوف تعني المسيحيين الكاثوليك الملكيين والمسيحيين الكاثوليك الموارنة فقط ولن تكون هناك إشارة إلى اليونانيين (الروم) الأرثوذكس وغيرهم من المسيحيين.

المعاني المتضمنة في "القمح المسلوق"

يعتبر القمح غذاء أساسياً بالنسبة للشعب الذي يعيش في إقليم شرق البحر الأبيض المتوسط ويمثل القمح بشكل خاص بالنسبة للمسيحيين رمزاً للقيامة، بما أنه يبدأ بالنمو مع قدوم فصل المطر ويعطي محصولاً وافراً، كما أن القمح أيضاً هو المكون الأساسي لخبز الذبيحة الإلهية (القربان، القربانة) التي تقدم أثناء القداس كرمز لجسد المسيح، وهذا يعني بأن القمح يتخذ، بالنسبة للمسيحيين، أهمية أعظم بكثير من أي محصول آخر. إن العديد من المسيحيين في إسرائيل يعيشون في قرى زراعية في منطقة الجليل في الجزء الشمالي من البلاد، وهناك القليل في يومنا الحاضر ممن يكسبون رزقهم اعتماداً فقط على الزراعة، كما أن العديد منهم يغادرون أماكن عيشهم للعمل في حيفا وغيرها من المناطق المتمدنة، ويعمل المزارعون الذين يبقون في القرى على زراعة المحاصيل على نطاقٍ ضيق وهي تتمثل بشكل رئيس في الزيتون والقمح، أما الفلاحون الذين يذهبون إلى مناطق المدن للعمل، فإنهم يعودون إلى قراهم للمساعدة في العمل الزراعي في الفترات التي تتطلب أيد عاملة، ونظراً للمحصول المحدود من القمح فإنه يستهلك حصراً في المنزل ولا يشحن للأسواق، وعصيدة القمح التي ستتم مناقشتها في هذا البحث مصنوعة بشكل رئيس من القمح الذي تمت زراعته على صعيد منزلي.

القمح المسلوق هو التعبير باللغة العربية عن (عصيدة القمح) التي تعني حرفياً (القمح الذي جرى سلقه)، ولإعداد القمح المسلوق يتم نقع القمح الذي جرى حصاده منزلياً بالماء في الليلة السابقة، ثم يسلق لساعات مع إضافة القرفة وحبوب الينسون، وفي العديد من الحالات يضاف السكر إلى القمح المسلوق ويقدم بعد أن يغطى سطحه بالمكسرات والزبيب والرمان وهو مازال ساخناً (انظر الصورة) والقمح المسلوق هو الطبق الذي تقدمه الأسرة العربية للزائرين في أيام الشتاء احتفاءً بهم.

يعتبرالقمح المسلوق بالذات طبقا شتويا تقليديا يعرفه المسيحيون والمسلمون، وفي حين يعتبره المسلمون واحداً من أطباق الحلوى الشتوية، فإنه ينطوي على مغزى خاص بالنسبة للمسيحيين كما يتضح فيما بعد.

الصورة: عصيدة القمح "بربارة" التي تقدم في عيد القديسة بربارة، يعلو البربارة بذور السمسم المحمصة والجوز وحب الرمان. التقطت الصورة في 3 كانون الأول عام 2000 في فاسوتا في منطقة الجليل في إسرائيل.

(1) طبق خاص من الحلوى يقدم في عيد القديسة بربارة

يقدم القمح المسلوق، في المجتمع المسيحي كطبق خاص من الحلوى في عيد القديسة بربارة (4 ديسمبر/كانون الأول).

كانت القديسة بربارة إحدى شهيدات العصر المسيحي الأول، والشهيدة الثانية الأكثر شهرة في الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية بعد العذراء مريم، ويعتقد بأنها عاشت في آسيا الوسطى أو في الإسكندرية في مصر حوالي القرن الرابع، فهي ليست سوى شخصية أسطورية في هذا الزمان وذلك لافتقاد البرهان على وجودها[1]. ولدت بربارة، بحسب الأسطورة لعائلة ثرية وعندما كبرت أبدت اهتمامها بالمسيحية، فغضب والدها غضباً شديداً وقام بسجنها في القلعة، ومع ذلك اعتنقت بربارة المسيحية وتمكنت من الهرب من القلعة، بيد أنه تم القبض عليها فقام والدها بقطع رأسها، لكن سرعان ما نزلت بالأب صاعقة والتهمت النار جسده.

لماذا إذاً يقدم القمح المسلوق في عيد القديسة بربارة؟ يعود تقديم القمح المسلوق في عيدها إلى الأسطورة التي تقول بأنها اختبأت في حقل من القمح عند هروبها من القلعة (منصور 1998 : 115).وهكذا ومع اقتراب عيد القديسة بربارة تبدأ سائر العائلات المسيحية بإعداد القمح المسلوق في كل عام، ومما يثير الاهتمام أنهم باتوا يطلقون على القمح المسلوق الذي يقدم في ذلك اليوم اسم "البربارة" تيمناً باسم القديسة بربارة.

(2) تقديم خبز القربان في نهاية قداس الدفن

يتكون قداس الدفن عند الكاثوليك الموارنة والملكيين من أربعة أجزاء على الأقل، فهناك أولاً قداس الدفن الذي يقام يوم الوفاة تتلوه قداديس أخرى تقام في اليوم الثالث والسابع بعد الوفاة أما آخر القداديس وأكثرها أهمية وهو (جناز الأربعين) الذي يدعى لحضوره المعزون فهو يجري على نطاق كبير في اليوم الأربعين من الوفاة[2].

في نهاية هذا القداس الأخير تقدم قطعة من خبز القربان لكل فرد من المعزين الحاضرين وفقاً للعادات التقليدية، ويستعمل عادة "الخبز" المصنوع من عجينة القمح التي أضيف إليها السكر ونكّهت (بالمستكة)[3] لهذا الغرض، غير أنه في بعض الحالات النادرة يقدم القمح المسلوق بدلاً من الخبز، وقد مررت بمناسبة واحدة فقط شهدت بها مثل هذه الحالة، وذلك عندما حضرت قداساً كاثوليكياً مارونياً أقيم لجناز الأربعين بعد الوفاة، ويشير كتاب الطقوس البيعية الذي ألفه البطريرك الكاثوليكي الملكي الحالي إلى أن تقديم القمح المسلوق في قداس الجناز يعتبر رسمياً بشكل أكبر من تقديم الخبز، (لحام 1988 : 167). ففي حين يمكن شراء الخبز من الفرن، فإن إعداد القمح المسلوق يتطلب الوقت والجهد، ولهذا السبب أظن بأن الخبز أوسع استخداماً من القمح المسلوق اليوم، وقد جرت العادة على أن تقوم النساء في عائلة المتوفى بإعداد القمح المسلوق لتقديمه في قداس الدفن، أما اليوم فإن النساء في العائلة الثكلى هن اللواتي يقطعن الخبز أرغفة في اليوم الذي يسبق القداس لتقديمه إلى المشيعين،على ضوء هذه العادات، بوسعي القول بأن هؤلاء المسيحيين قد أبقوا على ممارسة إجراء خدمة قداس الدفن بالتعاون مع أقارب المتوفى.

(3) تقديم القمح المسلوق عند الاحتفال بظهور أسنان الطفل

في حين يرتبط القمح المسلوق ارتباطاً وثيقاً بالطقوس المسيحية في الحالات المذكورة أعلاه، فإنه غالباً ما يستعمل لأغراض غير دينية أيضاً فعلى سبيل المثال، هناك حالات يقدم فيها القمح المسلوق لمجرد الاحتفال بظهور أسنان الأطفال.

إن لدى المسيحيين عادة تقديم القمح المسلوق للأقارب والجيران احتفالاً بظهور الأسنان اللبنية، ويهدف هذا الطقس إلى الإعلان للملأ بأن الطفل قد بلغ مرحلة الفطام ، وأنه جاهز لأكل الطعام الصلب، ويقوم الأهل بالتظاهر بإطعام الطفل بضع حبوب من القمح، ويدعى القمح المسلوق المقدم في هذا الطقس "سنونية" لا "القمح المسلوق" أو "البربارة" وهي كلمة مشتقة من الكلمة العربية "سن".

2. الرمز في القمح المسلوق

اعتماداً على الحالات المذكورة أعلاه، سوف أقوم بمناقشة الرمز في القمح المسلوق.

(1) رمز الموت وجسد الذبيحة

تعتبر أعياد القديسين عموماً أياماً يحتفل فيها باستشهاد القديسين في المسيحية والإسلام على حد سواء، هذا يعني بأن القمح المسلوق الذي يقدم في عيد القديسة بربارة يرمز إلى جسد الشهيدة نفسها، كما تدل على ذلك حقيقة تسميته بـــ (البربارة).

من المعروف جداً بأن الخبز بالنسبة للمسيحيين هو رمز جسد المسيح وذبيحته، ولإعداد القمح المسلوق، يقوم معدوه بسلق حبوب القمح الكاملة غير المطحونة التي تنمو إن زرعت في الأرض، بعبارة أخرى، يقومون "بقتل" حبات القمح الحية بالغلي. فضلاً عن ذلك، فإنهم يقومون بنقع حبات القمح بالماء في الليلة السابقة لجعلها أكثر قابلية للحياة قبل الغلي، بهذا المعنى، فإن القمح المسلوق المعد من حبات القمح "الميتة" أكثر ارتباطاً بصورة الجسد منه بالخبز، ربما كان هذا هو السبب الذي يدعو المسيحيين إلى توزيع القمح المسلوق بين المشيعين كقربان في قداس الدفن.

(2) رمز الحياة

لا يرمز القمح المسلوق، على أي حال، إلى الموت فقط بل إلى الحياة أيضاً كما تبرهن على ذلك الـــ (سنونية).

يتناول المسيحيون روح المسيح بأكل الخبز –الذي هو جسد المسيح– المقدم في القداس، مع أن المسيح قال "ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان" (متى 4:4)، إلا أن هذه العبارة تدل بدورها على أهمية القمح كمكون رئيس للخبز بالنسبة لسكان إقليم شرق البحر الأبيض المتوسط، فالمسيحيون يأكلون القمح من أجل أود أجسادهم من ناحية ويتناولون خبز القربان، الذي يرمز إلى جسد المسيح من أجل غذائهم الروحي من ناحية أخرى. إن الإنسان قد جبل ليقتات بالقمح.

لكن لا يمكن أكل القمح ومنتجات القمح دون أسنان،هذا يعني بأن الأطفال يمكنهم تناول غذائهم جسدياً وروحياً من القمح ويصبحون مسيحيين فقط بعد أن تظهر أسنانهم اللبنية لمضغ منتجات القمح، لهذا السبب تقدم "السنونية" للاحتفال بولادة الأطفال ولادة جديدة كيافعين وكمسيحيين.

الصراع بين الهويتين ودور عصيدة القمح في التخفيف منه

لا يتردد المسيحيون عموماً في التباهي بأن ثقافتهم، بما فيها ثقافة الطعام، تتفوق عل مثيلتها عند المسلمين.[4] فغالباً ما يشير المسيحيون، كمثال على تفوقهم الثقافي، إلى وجبات القمح[5] التي يمثلها خبز القربان وكذلك إلى القمح المسلوق المقدم بدلاً من خبز القربان.

يقول معظم المسيحيين بأن خبز القربان المقدم في قداس كل يوم أحد يتمتع بمذاق أطيب من أي

خبز آخر (ناهيك عن قدسية الخبز). إن لخبز القربان، في الحقيقة، المعد من أجود أصناف القمح مع ما أضيف إليه من السكر مذاقا حلوا نوعاً ما ولذيذا، ويعتقد المسيحيون أنهم يتميزون في تناول مثل هذا الخبز طيب المذاق، كما يعتبر القمح المسلوق من ناحية أخرى مجرد طبق شتوي من الطعام عند المسلمين إلا أنه ينطوي على مغزى أكبر عند المسيحيين: يضفي المسيحيون قداسة دينية على القمح المسلوق ويأملون تخطي الحياة والموت به، فحبات القمح تسقط في الأرض وتنمو وتعطي محصولاً وافراً وتموت عندما يأكلها الناس من أجل أودهم، وبهذا المفهوم يعتبر القمح ممثلا لدورة الحياة والموت، ويستعمل المسيحيون القمح في أطباق متنوعة، ويقدمون عدة أنواع من وجبات القمح ويتباهون بفائدة القمح المسلوق وخبز القربان، ويدعى المسيحيون، بقيامهم بذلك، بتفوقهم على المسلمين من حيث الروحانية.

تعتبر زراعة القمح أيضاً رمزاً للزراعة بالنسبة للفلاحين في إقليم الجليل، مع أن عددا أقل من الناس الآن يعملون في الزراعة في هذا الإقليم إلا أن المزارعين المحليين مازالوا يتبعون التقويم الزراعي التقليدي بدءاً بعيد الصليب في 14 أو 15 سبتمبر/أيلول[6] حين ترى سنوياً أولى تباشير موسم المطر، الذي يبدأ المزارعون مع قدومه جني محصول الزيتون وبذر القمح، وفي نهاية موسم المطر يجنون محصول القمح ليبدأ بعده موسم الراحة عندهم. هذا يعني بأن دورة زراعة القمح تقف وراء برنامج الزراعة السنوي، وبذلك فهي ترمز إلى المجتمع الزراعي الذي يعتبر مجتمع معظم العرب في إقليم الجليل، ولا يعني شعور الانتماء إلى المجتمع الزراعي الكثير للمسيحيين فقط بل للمواطنين العرب في إسرائيل أيضاً، لأنه يشكل جوهر هوياتهم بالذات (سوغاسيه Sugase 225 : 62 – 64). لهذا السبب، يمكن الاستنتاج بأن تباهي العرب ممن ولدوا وترعرعوا في المجتمع الزراعي بالتفوق في وجباتهم من القمح يوازي الإعلان عن هويتهم كعرب.

من ناحية أخرى فإن العرب الذين هم مسيحيون كاثوليك ملكيون أو موارنة كاثوليك أكثر انجذاباً إلى الغرب من المسيحيين من اليونانيين الأرثوذكس (الروم الأرثوذكس) وذلك بسبب ارتباطهم بكنيسة روما الكاثوليكية.. نظراً للمنافسة بينهم وبين المسيحيين من الروم الأرثوذكس والمسلمين فهم يتباهون بقربهم من الغرب، لا بل يشعرون أحياناً بالتردد في التعريف بأنفسهم على أنهم عرب(Sugase 2005 : 132). هم في داخلهم ممزقون على الدوام تتنازعهم هويتان: هويتهم كعرب وهويتهم كمسيحيين.[7] ومع ذلك فهم يبدون بالنسبة لي أنهم يحاولون التوفيق بين هاتين الهويتين المختلفتين وجعلهما متكاملتين وذلك بإضفاء مغزى مسيحي على القمح المسلوق وامتداحه وهو الوجبة التقليدية التي يعدها ويتناولها سائر العرب في إقليم شرق البحر الأبيض المتوسط بغض النظر عن الاختلاف في معتقداتهم، لذا يمكن تفسير تقديم المسيحيين العرب للقمح

المسلوق بفخر على أنه تمثيل لفخرهم بكونهم مسيحيين وتفوقهم المفترض على المسلمين معاً، وهو أيضاً تمثيل لرغبتهم في الاحتفاظ بنفس الهوية العربية التي يحملها المسلمون.

الحواشي:

1- في حين يُعتقد عامة بأن القديسة بربارة عاشت في آسيا الوسطى، فإن الكنيسة القبطية الأرثوذكسية في مصر وغيرها من الكنائس الأرثوذكسية الشرقية تتمسك بأنها عاشت في الإسكندرية. هذه هي أيضا" الحال بالنسبة لقديس محبوب جداً هو القديس مار جرجس. وقد طرحت نظريات متنوعة حول أصله ، ويجادل البعض بالقول بأنه عاش في فلسطين لا في آسيا الوسطى ويصر البعض على أن أمه كانت فلسطينية.

2- تُقام القداديس أيضاً بعد مضي ستة أشهر أو سنة على الوفاة إذا ما رغب أفراد عائلة المتوفى بذلك.

3- كلمة "مستكة" العربية مشتقة من الكلمة الإنكليزية "mastic". والمستكة عبارة عن صمغ يؤخذ من أشجار تنبت في جزيرة Chios في اليونان وقد اعتبرت مهمة كدواء يساعد على الهضم منذ الأزمنة القديمة. يستعملها المسيحيون من الروم الأرثوذكس لإعطاء نكهة لخبز القربان وكذلك يفعل الكاثوليك الملكيين وبعض المسيحيين من الكاثوليك الموارنة. هذا ما يدل على أنه بالرغم من انفصال الكنيسة الكاثوليكية الملكية عن الكنيسة الأرثوذكسية ووضعها تحت إمرة كنيسة روما الكاثوليكية في أوائل القرن الثامن عشر، إلا أن المنتمين إليها مازالوا يحتفظون بعدد من عقائد وعادات الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية.

4- سمعت أحياناً أثناء الدراسة الميدانية التي قمت بها أن ربات بيوت مسلمات يعبرن عن إعجابهن "بالوجبات التي يعدها المسيحيون الذين يعيشون في قريةٍ شماليةٍ" بحضور سيدات من تلك القرية سررن جداً من تلك الملاحظة. يقال في الواقع بأن المسلمين، كما يبدو، يقرون بأن "المسيحيين يمتلكون ذوقاً أكثر رقياً" منهم (Sa'ar 1998: 221)، مع أن الحالة المروية في ورقة البحث هذه تشير إلى الذوق في المفروشات.

5- لابد من أن نذكر "الكبة النيئة" بالإضافة إلى خبز القربان والقمح المسلوق كأحد الأمثلة التي توضح جودة الأطعمة عند المسيحيين، يتم تحضير هذا الطبق بنقع البرغل، وهو حبوب القمح المطحونة بالماء ثم يتم مزجه مع لحم الماعز النيئ المطحون، والأعشاب والبهارات والبابريكا لصنع كتل من عجينة البرغل واللحم. يعتبر صنع الكبة النيئة بمثابة الوليمة التي تقام لإكرام الضيوف في القرى الشمالية من إقليم الجليل والتي تضم عدداً كبيراً من السكان المسيحيين. يتباهى الفلاحون في كونهم قادرين على تقديم "الكبة النيئة" لأن ذلك يدل على أنهم يتمتعون ببيئة صحية نظيفة وأساليب متطورة تسمح لهم بأكل اللحم النيئ الطازج. هناك مثال آخر هو المعمول وهو ما تعده كل عائلة كحلوى للاحتفال بعيد الفصح. يصنع المعمول أيضاً من القمح عل شكل إكليل الشوك الذي كلل المسيح أو على شكل القبر الذي يرمز إلى المسيحية. يعد المسلمون أيضاً المعمول ويقدمونه بمناسبة العيد إلا أن شكله لا علاقة له بأي رموز دينية معينة.

6- مهرجان عيد الصليب هو المناسبة التي يحتفل فيها بذكرى اكتشاف القديسة هيلانة والدة الإمبراطور قسطنطين لخشبة الصليب، على جبل الجليل. يعتقد بأن المطر إذا هطل في ذلك اليوم فإن موسم المطر سيكون أكثر غزارة وسيكون المحصول أكثر وفرة. ويقال بأن فرصة نزول المطر في ذلك اليوم كبيرة. حضرتُ الاحتفال في حيفا في إسرائيل مرتين في عام 2001م و2002 م وفعلاً هطل مطرخفيف أثناء الاحتفال عام 2001 م رغم الطقس اللطيف.

7- حتى أن هذا الصراع بالنسبة للكاثوليك الملكيين أكثر خطورة لأن الكنيسة الملكية انفصلت عن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية لتنشأ كنيسة جديدة للعرب. لذلك عندما يتباهى المرء بأنه مسيحي ملكي فهذا يماثل أنه عربي. ومع ذلك يشعر الكثيرون بالتردد بالإفصاح عن هويتهم كعرب بسبب إحباطهم بالأقطار العربية المجاورة وتنافسهم مع المسلمين الذين يشكلون الأكثرية الساحقة في سكان هذه الأقطار.

المراجع :

سعر، آماليا	1998	"على الهامش بحذر: الفلسطينيون المسيحيون في حيفا بين الأمة والدولة." أخصائية أمريكية في علم الأقوام، أيار 1998،، ص 215–239
سوغاسيه ،أكيكو	2005	"تأمل حول هوية المسيحيين العرب في إسرائيل: دراسة حول المسيحيين الكاثوليك الملكيين في إقليم الجليل" رسالة دكتوراه مقدمة إلى جامعة الدراسات العليا المتقدمة.
لحام، المطران لطفي	1998	"مدخل إلى رطب الليتورجية و رموزها في الكنيسة الشرقية"، القدس الشريف.
منصور، جوني	1988	"الأعياد والمواسم في الحضارات العربية"، حيفا